

# التَّوَكَّلْ

## عناصر الموضوع

١٨٨	مفهوم التوكل
١٨٩	التوكل في الاستعمال القرآني
١٩٠	الألفاظ ذات الصلة
١٩٢	دلالة اقتران التوكل بالإيمان والعبادة
١٩٣	التوكل في حق الله تعالى
١٩٨	الأنبياء عليهم السلام والتوكل
٢٠٣	دوافع التوكل على الله تعالى
٢٠٥	مواطن التوكل على الله تعالى
٢٢٢	ثمرات التوكل

## مفهوم التوكل

أولاً: المعنى اللغوي:

من الجذر «و ك ل» وأصلها: اعتمادك على غيرك<sup>(١)</sup>، تقول: وكلته إليك أكله كلةً، أي: فوضته، ورجل وكلٌ ووكلةٌ وهو المواكل يعتمد على غيره فيضيع أمره، وتقول: وكلت بالله، وتوكلت على الله، ووكلت فلاناً إلى الله، أكله إليه، والوكيل: فعله التوكل، والتوكل إظهار العجز والاعتماد على غيرك، وكذلك يعني «التكلان» الذي انقلبت تاؤه عن واو، ومصدر التوكل الوكالة<sup>(٢)</sup>، قال ابن منظور: «يقال: توكل بالامر إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلانٍ أي ألقأته إليه واعتمدت فيه عليه، ووكل فلانٌ فلاناً إذا استكفاه أمره؛ ثقةً بكفايته، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه»<sup>(٣)</sup>.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي:

غلب استخدام مصطلح التوكل في توكل العبد على ربه؛ لذا عرفه العلماء أنه: «الثقة بما عند الله، والياس عما في أيدي الناس»<sup>(٤)</sup>، وقال الرازي: «التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة، ولكن لا يعول بقلبه عليها، بل يعول على عصمة الحق»<sup>(٥)</sup>، وأضاف النسفي أن التوكل هو «قطع العلائق وترك التملق للخلائق»<sup>(٦)</sup>، وقال ابن عاشور: «هو انفعال قلبي عقلي يتوجه به الفاعل إلى الله؛ راجياً الإعانة، ومستعيذاً من الخيبة والعوائق»<sup>(٧)</sup>. وقد نخلص من المعاني السابقة إلى أن التوكل على الله هو: ثقة العبد بالله تعالى، وتفويض الأمر إليه، والاعتماد عليه في جلب النفع أو دفع الضرر. والمتأمل في التعريفين اللغوي والاصطلاحي يجد توافقاً واضحاً بينهما، فالتوكل لغة هو تفويض الأمر والاعتماد على الآخر مع الثقة، والمعنى الاصطلاحي يتضمن تفويض الأمر لله تعالى، والاعتماد عليه وحده في تسيير الأمور؛ ثقةً بقدرته الكاملة عز وجل.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ١٣٦/٦.

(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٤٠٥/٥، مختار الصحاح، الرازي ١/٣٤٤.

(٣) لسان العرب ١١/٧٣٤.

(٤) التعريفات، الجرجاني ١/٧٠.

(٥) مفاتيح الغيب ٩/٤١٠.

(٦) مدارك التنزيل ١/٤٣٩.

(٧) التحرير والتنوير ٤/١٥١.

## التوكل في الاستعمال القرآني

وردت مادة (وكل) في القرآن (٧٠) مرة <sup>(١)</sup>.  
والصيغ التي وردت هي:

المثال	عدد المرات	الصيغة
﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]	١٣	الفعل الماضي
﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل:٤٢]	١٨	الفعل المضارع
﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال:٦١]	١١	فعل الأمر
﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩]	٤	اسم الفاعل
﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:٦٢]	٢٤	الصفة المشبهة

والتوكل هو: الاعتماد على الغير وتفويض الأمور له، ولم يخرج في الاستعمال القرآني عن هذا المعنى <sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٧٦٢-٧٦٣، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٤٢٥-١٤٥٣.  
(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/٣٣٦-٣٣٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي، ٥/٢٦٦-٢٧٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص ٦٠٧-٦٠٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الثقة:

الثقة لغة:

الائتمان<sup>(١)</sup>.

الثقة اصطلاحًا:

من يعتمد عليه في القول والفعل<sup>(٢)</sup>.

الصلة بين الثقة والتوكل:

يوجد تكامل كبير في المفردتين، فلا يمكن أن يتوكل الإنسان إلا على من يثق به ويأتمنه

على القيام بالأمر.

١ الثقة:

الاعتماد لغة:

اعتمد على الشيء اتكأ، واعتمد عليه في كذا اتكل، ويقال: اعتمد الشيء: قصده وأمضاه،

ويقال: اعتمد الرئيس الأمر: وافق عليه وأمر بإنفاذه<sup>(٣)</sup>.

الاعتماد اصطلاحًا:

هو «القصْد إلى الشيء والاستناد إليه مع حسن الركون»<sup>(٤)</sup>.

الصلة بين الاعتماد والتوكل:

المفردتان متقاربتان؛ لأن في كليهما استنادًا إلى المعتمد عليه مع حسن الركون

والاطمئنان.

٣ التواكل:

التواكل لغة:

«تواكل القوم: اتكل بعضهم على بعض»<sup>(٥)</sup>.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٤٥٠/٢٦.

(٢) التوقيف، المناوي ١/١١٦.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/٣٠٢، مختار الصحاح، الرازي، ١/٢١٨، المعجم الوسيط،

مجمع اللغة العربية، ٢/٦٢٦.

(٤) الكلبيات، الكفوي ١/١٥١.

(٥) العين، الفراهيدي ٢/٢٦٦.

التوكل اصطلاحًا:

هو التخاذل وترك العمل بالأسباب، وانتظار الأمانى<sup>(١)</sup>.

الصلة بين التوكل والتوكل:

المفردتان متضادتان، فالتوكل هو عمل الجوارح مع توكل القلوب، أما الكسل عن الأخذ بالأسباب مع الادعاء بالتوكل هو حقيقة التوكل.

## ٤ التفويض:

التفويض لغة:

«فوض إليه الأمر تفويضًا: رده إليه، وجعله الحاكم فيه»<sup>(٢)</sup>.

التفويض اصطلاحًا:

هو «رد الأمر إلى الله والتبرؤ من الحول والقوة»<sup>(٣)</sup>.

الصلة بين التفويض والتوكل:

المفردتان متقاربتان، فالتفويض والتوكل يشتركان في رد الأمور إلى الآخر فيما لا تستطيعه قدرة الشخص.

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٤٢/٤.

(٢) تاج العروس، الزبيدي ٤٩٦/١٨.

(٣) التوقيف، المناوي ١٠٤/١.

دلالة اقتران التوكل بالإيمان والعبادة

التوكل من أعظم العبادات المرتبطة بالإيمان؛ لذلك كثر اقترانه بمصطلحي «العبادة» و«الإيمان»، فالتوكل على الله هو أجمع أنواع العبادة، وأعلى مقامات التوحيد وأعظمها وأجلها؛ لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة؛ فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدينية دون كل ما سواه؛ صح إخلاصه ومعاملته مع الله، وكذلك لا يصح إيمان الإنسان إذا فسد توكله، فالتوكل شرط في الإيمان<sup>(١)</sup>، بدلالة قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. أي على الله وحده اعتمدوا وثقوا، فهو وكيلكم الأعلّم بما يصلح لكم إن كنتم مؤمنين، وإن لم تكونوا متوكلين فلن ينطبق عليكم سمت المؤمنين<sup>(٢)</sup>.

وفي موضع آخر قال جل وعلا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنْتُمْ مَأْمَنُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

وهنا يظهر اشتراط التوكل للإسلام، فيجب أن يسلم الإنسان أموره لله عز وجل خالصة دون تخليط؛ حتى ينال الرضا من الله تعالى<sup>(٣)</sup>.

وقد قرن التوكل بالعبادة في أكثر من موضع، منها قول الله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ مَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

وقد بيّن الرازي أن أول درجات السير إلى الله تعالى هو عبودية الله، وآخرها التوكل على الله، وأن هذا هو السبب الذي أدى إلى ترتيب الآية هكذا: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾، بمعنى أن المخلص في العبادة المؤدي لها بيقين وتأمل وصفاء يصل به التدبر إلى عظم الخالق عز وجل وروعة إبداعه، وأنه لا يملك أمام تلك القدرة المطلقة سوى تفويض أموره كلها والاعتماد عليه تعالى في تسيير شؤون حياته كلها<sup>(٤)</sup>.

ولعل ترتيب الآية السابقة يؤكد على مبدأ العبادة والعمل، ومن ثم تفويض الأمور لله تعالى، وهذا هو التوكل الصحيح، خلافاً لما يفعله المتواكلون من القعود عن العمل، وترك الأمور بحجة التفويض، وإسناد الأمور للخالق عز وجل، فالله يحب العاملين ولا يحب المتخاذلين.

(١) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، صالح الفوزان ١/ ٧٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٠٣.

(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٦٤.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤١٤.

الله سبحانه وتعالى، والموكول إليه ينقسم إلى: من يستحق أن يكون موكولاً إليه لا بذاته ولكن بالتفويض والتوكيل، وهذا ناقص؛ لأنه فقير إلى التفويض والتولية، وإلى من يستحق بذاته أن تكون الأمور موكولة إليه، والقلوب متوكلة عليه لا بتولية وتفويض من جهة غيره، وذلك هو الوكيل المطلق، والوكيل أيضاً ينقسم إلى: من يفي بما وكل إليه وفاءً تاماً من غير قصور، وإلى من لا يفي بالجميع، والوكيل المطلق: هو الذي الأمور موكولة إليه وهو مليء بالقيام بها، وفي إتمامها، وذلك هو الله تعالى<sup>(٣)</sup>.

والفرق بين وكالة الله ووكالة العباد، أن الوكيل صفة الله التي تعني المتولي القائم بتدبير خلقه؛ لأنه مالك لهم رحيم بهم، أما توكيل العباد إنما يعقد بالتوكيل، ولا يتضمن الرحمة<sup>(٤)</sup>، لذا حري بنا أن نتوجه إلى الله جل جلاله بالدعاء باسمه الوكيل، وبجميع أسمائه الحسنی، فالله تعالى حقيق بذلك، وقد أمرنا بهذا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِيَّ اسْمِيهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾<sup>(٥)</sup> [الأعراف: ١٨٠].

وعلى الإنسان أن يستحضر لحظة الدعاء عزة الربوبية وذلة العبودية، فبذلك يعظم<sup>(٣)</sup> المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى ص ١٢٩.

(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ١/ ٥٧٧.

## التوكل في حق الله تعالى

من أسماء الله تعالى الوكيل، وقد حَقَّ لجلاله وعزته وحكمته هذا الاسم، فعليه يجب أن يتوكل المؤمنون، وعلى غيره لا يصح التوكل؛ لأن التوكل عبادة قلبية، لا تصرف إلا لله عز وجل<sup>(١)</sup>، وسيأتي بيان معنى اسم الله الوكيل واستحقاقه جل وعلا لهذا الاسم فيما يأتي:

أولاً: الوكيل من أسماء الله الحسنی:

أثبت الله تعالى لنفسه اسم الوكيل، يقول الحق عز وجل: ﴿اللَّهُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾<sup>(٢)</sup> [الزمر: ٦٢].

وقال في موضع آخر: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾<sup>(٣)</sup> [آل عمران: ١٧٣].

والوكيل هو المتكفل باحتياجات عباده، وقيل: الموكول إليه ذلك، فإن عباده وكلوا إليه مصالحهم اعتماداً على إحسانه عز وجل<sup>(٢)</sup>.

يقول الطوسي: الوكيل «هو الموكول إليه الأمور، ولكن الموكول إليه ينقسم إلى من يوكل إليه بعض الأمور، وذلك ناقص، وإلى من يوكل إليه الكل، وليس ذلك إلا

(١) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ١/ ١٣٧.

(٢) انظر: المواقف، الإيجي ٣/ ٣٢٢.

الدعاء ويحسن الذكر<sup>(١)</sup>.

ثانيًا: استحقاق الله تعالى للتوكل لاتصافه بصفات الكمال:

لله تعالى من الصفات المطلقة ما يجعلنا نسارع إلى عبادته، ونجتهد في التوكل عليه، توفيقًا إلى رحمته، وحرصًا على استحقاق جنته، فمن أهم ما يجعل المؤمن يتوكل على ربه عز وجل:

١. سعة علمه.

الله عز وجل هو العليم، فقد أثبت العلم المطلق لنفسه تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ جَنَّحُوا لِلْإِسْلَامِ فَأَجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦١].

وأثبتها له صفوة عباده المؤمنين، فقد وردت على لسان أنبياء الله الكرام، كقول إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿وَإِذْ رَفَعْنَا بِرَبِّنَا آلُ إِبْرَاهِيمَ الْفَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا فَتَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧].

وأيضًا أثبت العلم المطلق لله تعالى يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿قَالَ بَلْ سَأَلْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمَّا قَصَبٌ جَمِيدٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

وقال تعالى عن مريم ابنة عمران: ﴿إِذْ

قَالَتْ أَمْرًاتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥].

والعليم يعني: أن الله تعالى يحيط بكل شيء علمًا، ظاهره وباطنه، دقيقه وجليله، أوله وآخره، عاقبته وفاتحته، فمعلوماته تعالى لا نهاية لها، وكذلك وضوحها وكشفها على أتم ما يمكن فيه، بحيث لا يتصور مشاهدة وكشف أظهر منه، ثم لا يكون تعالى مستفيدًا من المعلومات، بل تكون المعلومات مستفادة منه، فهو تعالى الذي يمدّ بالعلم من يشاء<sup>(٢)</sup>، وهذا العلم الإلهي يجعلنا نسلّم أمورنا متوكلين على الله تعالى؛ فنحن الجاهلون وهو الأعلم بحالنا وبما يصلح لشؤون ديننا ودنيانا، وهو الراضي عنا بهذا التوكل، وهو كافينا ما أهمنا.

٢. سعة رحمته.

وصف الله عز وجل ذاته المقدسة بالرحمة الواسعة، فقد قال عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال أيضًا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْتِيكَ أَنْتُوبَ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠].

(٢) انظر: المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، الطوسي ص ٨٦.

(١) انظر: مراح لبيد، محمد الجاوي ١/٤٠٩.

يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء العادلين بي الجاحدين نبوتك يا محمد، إن تابوا وأنابوا قبلت توبتهم، وإني قد قضيت في خلقي: أن رحمتي وسعت كل شيء»<sup>(٢)</sup>، ونحن نقول: إذا كانت هذه رحمة بالمعرضين عنه، فكيف تكون رحمة بالمقبلين عليه، الساجدين بين يديه، المتوكلين عليه في تسيير أمورهم، وكيف لهم ألا يتوكلوا إذا ما علموا عطفه على عباده ورفقه بهم، ورحمته فيما يقدر لهم من مقادير!

٣. عزته وقوته.

عزاء المؤمن المظلوم والمقهور في هذه الدنيا يقينه أن الله تعالى هو القوي العزيز، الذي لا تضع عنده الحقوق ولا يفلت من عقابه الظالمون.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا بَنِي سَالِحًا وَالزُّبَيْرَ أَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وتتجلى قوة الله وعزته في الآية: كونه تعالى قد أوصل العذاب إلى الكفار بصالح عليه السلام، وصان أهل الإيمان عنه، وهذا لا يصح إلا من القادر الذي يقدر على قهر طباع الأشياء، فيجعل الشيء الواحد بالنسبة إلى إنسان بلاء وعذاباً، وبالنسبة إلى

(٢) جامع البيان ١/١٠٧.

وتقررت الصفة مرة أخرى في موضع ليس ببعيد عن الموضع السابق في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَجِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

وقد أثبت صفة الرحمة لله تعالى أنبياء الله الكرام، فقد قال تعالى عن موسى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقَوْمِ إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجَلِ فَتَوَبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاذْكُرُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وعن سليمان ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠].

وأثبتها لله تعالى محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الأحقاف: ٨].

ورحمة الله تعالى هي تفضله وكرمه على المؤمنين، فقد أوجب تعالى الرحمة على نفسه تفضلاً وإحساناً، ولم يوجبها عليه أحد<sup>(١)</sup> في قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

فهو الممتن عليهم بعبثائه الجزيل، وهو الذي يتوب على عباده،

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الهراس ص ١٠٧.

إنسان آخر راحة وريحاناً<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾  
﴿بَرَزُوا مِنْ عِشَاءٍ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾<sup>(١١)</sup>  
[الشورى: ١٩].

أي: أن رب العزة ذو لطف بعباده مؤمنهم وكافرهم، فهو الذي يطعمهم ويسقيهم، وحتى في خلوات المعصية يمرر إليهم الهواء فيحييهم، وهو تعالى على كرمه معهم قادر على أخذهم بقوته التامة؛ فهو الذي لا يعجزه شيء، وهو العزيز في انتقامه إذا أراد الانتقام من أحد<sup>(٢)</sup>.

وقد ابتلى الله ابن آدم بالموت؛ ليرى نتيجة عمله، والله هو العزيز المنتقم من الظالمين، القابل توبة التائبين<sup>(٣)</sup>: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾<sup>(٤)</sup> [الملك: ٢].

والذي يفهم بحق معنى عزة الله وقوته، ويدرك أن الله مقتص من الظالمين، ناصر للطائعين عاجلاً كان أم آجلاً، سيفوض أموره كلها لله واثقاً متوكلاً موقناً أنه لن يضيع له حق.

٤. حكمته.

من أسماء الله تعالى: الحكيم، فهو سبحانه صاحب الحكمة المطلقة.

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥١٧/١٠.

(٢) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٤/٦٠٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/٥٠٥.

يقول عز وجل: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾  
﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْقَبِيرُ﴾<sup>(١٨)</sup> [الأنعام: ١٨].

قال ابن القيم: «الحكمة: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي»<sup>(٤)</sup>.

وقال الطوسي: «الحكمة: هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم.. ولا يعرف كنه معرفته غيره، فهو الحكيم الحق؛ لأنه يعلم أجل الأشياء بأجل العلوم، إذ أجل العلوم هو العلم الأزلي الدائم الذي لا يتصور زواله، المطابق للمعلوم مطابقة لا يتطرق إليها خفاء ولا شبهة، ولا يتصف بذلك إلا علم الله سبحانه وتعالى، وقد يقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويحكمها ويتقن صنعها حكيم، وكمال ذلك أيضاً ليس إلا لله تعالى، فهو الحكيم الحق»<sup>(٥)</sup>.

وقد أثبت آيات القرآن الكريم هذه الصفة لله تعالى، قال جل وعلا على لسان ملائكته الكرام: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(٣٣)</sup> [البقرة: ٣٢].

وقال على لسان يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾<sup>(٤٤)</sup>

(٤) مدارج السالكين ٢/٤٤٩.

(٥) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنی ص ١٢٠.

التي لا يقدر عليها إلا الله؛ كالذين يتوكلون على الأموات، ويطوفون بالقبور استشفاءً أو طلباً للنصر والرزق، فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل على غير الله في الأمور التي يقدر عليها العباد؛ كأن يتوكل على وزير أو أمير في فيما جعله الله في يده من سلطة أو وظيفة، في جلب مصلحة أو دفع أذى، فهذا ينافي كمال الإيمان ويضعفه.

والوكالة الجائزة: هي توكيل الإنسان في فعلٍ مقدور عليه، ولكن ليس له أن يتوكل عليه، وإن وُكِّله، بل يتوكل على الله ويعتمد عليه في تيسير ما وُكِّل صاحبه فيه<sup>(٣)</sup>.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وما رجا أحدٌ مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه فإنه مشرك»<sup>(٤)</sup>.

وقد قال رب العزة: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾ [الحج: ٣١].

والمشرك المتوكل على غير الله يوقع الله في قلبه التعلق بالمخلوقين، فيخافهم ويرجوهم فيحصل له رعب، كما قال تعالى:

﴿سَنَلْقَى فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا أَنَّهُمْ إِلَّا كَذِبٌ مُجْتَمِعٌ وَمَا أَنَّهُمْ إِلَّا كَذِبٌ مُجْتَمِعٌ﴾ [آل عمران: ١٥١].

(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبد الوهاب ١/٤٢٨.

(٤) الفتاوى الكبرى ٥/٢٣٢.

الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿[يوسف: ١٠٠].

وفي الآية الأخيرة تقرير لحكمة الله العليم، فقد مرت بيوسف عليه السلام ظروف صعبة، ابتداءً من إلقائه في الجب وانتهاءً بسجنه واتهامه ظلماً، إلا أن نبي الله المعصوم يعلم أن ربه حكيم، يجري كل حدث بمراد دقيق، وبما تقتضيه مصلحة الإنسان<sup>(١)</sup>، فإذا تيقن المرء من وجود الحكمة في تقدير الله تعالى وتدييره، فسيترك التفكير، ويقطع السعي فيما ليس للبشر قدرة عليه، وسيفوض أموره كلها لخالقه الحكيم العالم بمراد البشر، المتوكل بمصالحهم.

ثالثاً: نفي الإيمان عن غير المتوكل على الله تعالى:

التوكل على الله واجب وشرط لحصول الإيمان، وانتفاؤه انتفاء للإيمان بمقتضى قول الله تعالى<sup>(٢)</sup>: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤].

ولأن التوكل عبادة قلبية، فلا يصح صرفه لغير الله، فهذا من الشرك.

وقد قسّم العلماء التوكل على غير الله إلى قسمين:

الأول: التوكل على غير الله في الأمور

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٢/٧٠٨٦.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية ٧/١٦.

### الأنبياء عليهم السلام والتوكل

أنبياء الله الكرام هم صفوة خلقه، وقد أبرز القرآن الكريم الأسوة الحسنة من خلال قصصهم مع أقوامهم عليهم السلام، فكانوا خير المؤدبين لأممهم والمخلصين لها من أذال الجاهلية، والمتحلين بأجمل الخلال، قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقد تحلى أنبياء الله عليهم السلام بالتوكل، وحثوا أقوامهم على ذلك، وسنين ذلك فيما يأتي:

**أولاً: دعوة أقوامهم إلى التوكل على الله تعالى:**

دعا أنبياء الله الكرام أقوامهم إلى التوكل؛ لأنه من أجل العبادات.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَكَ عَلَى مَا أَدَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢].

وهذه العبارة نقلها القرآن الكريم ليصور لنا حال أنبياء الله الكرام الذين اجتهدوا في دعوة أنبيائهم إلى التوكل، فقد علموهم التوكل بالقدوة، وحضوهم عليها بالقول، وبيّنوا لهم أن هداية الله ونصره وتأييده لا تأتي إلا بالتوكل، ولا ننسى دعوة يعقوب عليه السلام لأبنائه وقومه أن يتوكلوا،

والخالص من الشرك يحصل له الأمن واطمئنان النفس والتعفف عن سؤال الناس<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ولعل من أهم قواعد التوكل التي نراها في هذه الأيام اعتماد الإنسان على الرقية بواسطة شخص معين، أو العلاج على يد طبيب بعينه اعتقاداً بقدرته على الشفاء، وهذا الأمر منافٍ للتوكل الصحيح الذي يعتمد على رجاء الله أولاً، ثم عمل ما يلزم بواسطة البشر مع عدم تعليق الأمل على أشخاصهم ثانياً.

(١) انظر: المصدر السابق ٥/ ٢٣٢.

وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٣﴾

[المائدة: ٢٣].

والقصة تحكي عن اثنين من النقباء الذين أرسلوا إلى الجبارين لاستكشاف قوتهم، وهؤلاء المذكورون في الآية من المؤمنين الذين رباهم موسى عليه السلام على التوكل، فحثوا قومهم على ذلك، وبيّنوا لهم أن قوة الجبارين في أجسادهم فقط، وأنهم إذا غزوهم في عقر دارهم ذلّوهم وهزموهم، وهذه هي التربية المؤمنة التي تعلّم أبناءها بذل الجهد وعدم الانشغال بالنتائج؛ لأن الله ناصر عباده وكافيهم شر الأعداء إن صدقوا الإخلاص وأحسنوا التوكل<sup>(٢)</sup>.

ثانيًا: الأنبياء أسوة في التوكل على الله تعالى:

التوكل سمة مشتركة لدى الأنبياء عليهم السلام، وقد ظهر التوكل في القصص القرآني بشكل واسع.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [إبراهيم: ١١].

ويظهر في الآية التأكيد على صفة التوكل والحث عليها بقوة، فقد بيّن أن الرسل

وأمرهم باتخاذ الأسباب التي تحميهم، ومن ثم تفويض الأمر لله عز وجل برعايتهم وحفظهم.

قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَبْنَیَّ لَا تَدْخُلُوا مِنِّي بَابٍ وَجِدُوا وَأَدْخُلُوا مِنِّي أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةً وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف: ٦٧].

قال ابن عاشور: «أراد بهذا تعليمهم الاعتماد على توفيق الله ولطفه مع الأخذ بالأسباب المعتادة الظاهرة؛ تأديبًا مع واضح الأسباب ومقدر الألطاف في رعاية الحالين، لأننا لا نستطيع أن نطلع على مراد الله في الأعمال، فعلينا أن نتعرفها بعلاماتها، ولا يكون ذلك إلا بالسعي لها»<sup>(١)</sup>.

وقد وردت في قصة موسى عليه السلام دعوة إلى التوكل، تأمل قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ مَآءُومًا فَلْيَتَوَكَّلُوا بِاللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤].

فالتوكل من أهم الأمور التي دعا إليها موسى عليه السلام وعلمها لقومه، ويظهر ذلك التأديب في قصة نعباء موسى الذين تربوا على يديه.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِذْكُمْ عَلَىٰ

(٢) انظر: المصدر السابق.

(١) التحرير والتنوير ١٣/ ٢٠.

الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ  
اللَّهِ مِنَ الْمَلِكِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

[التوبة: ٤٠].

عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قلت للنبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الغار: (لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ما ظنك يا أبا بكر في اثنين الله ثالثهما) (٢)، فرد عليه حبيبه عليه السلام: (لا تحزن) حائثاً إياه على مجاهدة النفس وتوطئتها على عدم الاستسلام، وقال له: (إنَّ الله معنا) يعني بنصره وتأييده (٣).

يقول الخازن: «وفيه بيان عظيم على توكل النبي صلى الله عليه وسلم.. وفيه فضيلة لأبي بكر وهي من أجل مناقبه، والفضيلة من أوجه، منها: اللفظ الدال على أن الله ثالثهما، ومنها: بذله نفسه ومفارقة أهله وماله ورياسته في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وملازمته النبي صلى الله عليه وسلم ومعاداة الناس فيها، ومنها: جعله نفسه وقاية عنه، وغير ذلك» (٤).

ولا يخفى ما أظهره أبو بكر الصديق وأصحابه من التوكل على الله عز وجل، فهذا

عليهم السلام أكدوا بشريتهم لأقوامهم وأن الله قد منّ عليهم بالتوحيد والدعوة، وأن الله ناصرٌ أنبياءه بقوته وجبروته تعالى، فقد تحدوا أقوامهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع كيدهم ومكرهم، وأن الأنبياء كانوا جازمين بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم، على الرغم من حرص المكذبين من أقوامهم على إطفاء ما معهم من الحق، وقد كان توكل الرسل عليهم الصلاة والسلام في أعلى المطالب وأشرف المراتب؛ فهو التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل. (١)

وإمام المتوكلين محمد صلى الله عليه وسلم، فهو الذي توكل على ربه في دعوته ورثى أصحابه الكرام على تلك الصفة، فقد تخفى عليه الصلاة والسلام مع أبي بكر رضي الله عنه في الغار فراراً بدينه من بطش المشركين.

قال تعالى: ﴿إِلَّا نَصْرُهُ فَكَدَّ  
نَصْرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا  
ثَانِيكًا اتْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ  
لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا اللَّهُ مَعْنَا  
فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ  
بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، ٤/٥، رقم ٣٦٥٣.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٠/٢١٣.

(٤) لباب التأويل ٣/٩٤-٩٥.

(١) انظر: التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي ١٠٨/٤.

الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً  
مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ  
لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧].

انظر كيف يترك إبراهيم عليه السلام  
زوجاه وابنه في صحراء مقفرة لا زرع فيها  
ولا مياه، يترك ابنه الذي رزقه الله إياه بعد  
سنتين في مكان لا يتصور أحد أن يترك فلذة  
كبده فيه، وتسأله زوجته: الله أمرك بهذا؟  
فيشير برأسه أن نعم، فتقول متوكلة على  
الله: إذا لا يضيعنا الله أبداً، هذه هي أسرة  
المتوكلين على الله حين علموا أن الله يريد  
أن يتم أمره الذي قدره (٢).

ويذكر الإدريسي أن في فعل إبراهيم  
عليه السلام إشارة إلى تربية أهله بحقائق  
التوكل والرضا والتسليم، ونعمت التربية  
تلك، فأعلمنا بسنته القائمة على الحنيفة  
السمحة السهلة: أن المؤمن الصادق ينبغي  
ألا يكون معولاً على الأسباب فحسب، بل  
يلزمه التوكل على الله في جميع أموره (٣).

وعلياً ألا نستغرب هذا التوكل العظيم  
منه عليه السلام، فهو الذي تبرأ من قومه  
جهراً وهو يتوقع أنهم سيلحقون به الضرر،  
ولم يكن يملك ما يدفع به مكرهم، لكنه لم  
يخش إلا الله، فقال عليه السلام داعياً ربه  
عز وجل: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنْتَابْنَا وَإِلَيْكَ

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي  
٣٦٨/٩.

(٣) انظر: البحر السديد، ابن عجيبة ٣/٣٧٥.

هو أبو بكر رضي الله عنه يتصدق بكل ماله  
في سبيل الله، ويجيب حبيبه صلى الله عليه  
وسلم عندما سأله: (ماذا أبقيت لأهلك؟)  
فيقول: أبقيت لهم الله ورسوله (١).

لا يخاف على أهله الموت فقراً وجوعاً،  
ومناً الآن من يستعظم صدقته إذا تجاوزت  
دخل يوم أو أقل، فلهه درك يا أبا بكر!

وقد ظهر التوكل جلياً في قصة نوح عليه  
السلام عندما قال لقومه: ﴿يَنْقُوزِ إِنَّ كَانَ كَبْرًا  
عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِمَا بَدَأَ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ  
تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ  
أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عِئْثًا ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾

[يونس: ٧١].

أي: إن كان الدين الذي أدعو إليه ثقيلاً  
عليكم ولا تتحملون مكوثي معكم ودعوتي  
لكم، فاجتمعوا أنتم وجميع شركائكم  
وافعلوا أقصى ما تستطيعون جهراً لا خفية،  
ولا تمهلوني أو ترحموني أو تألوا في ذلك  
سيلاً، فأنا متعلق بالله الذي سيكفيني أمركم  
وسينصرنني بقوته وعزته، وهذه قمة التحدي  
المبني على التوكل على الله والاعتزاز بالله  
عز وجل.

كما ظهر توكل سيد المتوكلين إبراهيم  
عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنِّي

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب  
الرخصة في ذلك خروج الرجل من ماله،  
١٢٩/٢، رقم ١٦٧٨.

﴿المستحقة: ٤﴾.

ولا يخفى أن التوكل إشارة إلى التوحيد المحض، فكل الأنبياء خصوا الله تعالى وحده بالتوكل، وأكدوا على ذلك في دعوتهم لأقوامهم، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على كونه عملاً عقدياً مهماً ينبغي ألا يشوبه شوائب (٢).

ولما ألقوه في النار ظهرت نتيجة توكله فكانت تلك الآية الرائعة، والمعجزة العظيمة في تحول النار عن صفة الاحتراق إلى صفة البرودة مع السلام.

قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۗ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (٧٠-٦٩). [الأنبياء: ٦٩-٧٠].

فلما رأى النمروذ تلك الآية ترك إبراهيم وكف أذاه عنه، فمن ذا الذي يخاف كيد الكافرين ومكرهم وهو في كنف المولى عز وجل، الغالب على أمره ولو كره الكافرون (١).

وقد توكل هود عليه السلام على ربه، وتحدى قومه المكذبين أن يضروه، فهو المتوكل على الله ولا يخسر المتوكلون أبداً، قال تعالى على لسان هود عليه السلام: ﴿فَكَيْدُوں جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ (٥٥) ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٦) [هود: ٥٥-٥٦].

وكذلك توكل شعيب عليه السلام على ربه، واعتز بهذا التوكل قائلاً: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]. وقال أيضاً: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٣٨٩.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٣٠.

هذا وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الآية تعني أن من اتصف بتلك الأوصاف هو المؤمن كامل الإيمان، بينما من لم يتصف بها هو المؤمن ناقص الإيمان، فلا يتنفي عنه الإيمان بالجملة<sup>(٢)</sup>، لكن المتأمل في الآية وفي معنى التوكل يعلم أن التوكل أمر عقدي، لذا يستبعد أن يكون المتوكل على غير الله مؤمناً إيماناً ناقصاً، بل يرجح انتفاء الإيمان عنه، والله أعلى وأعلم.

### دوافع التوكل على الله تعالى

للتوكل على الله تعالى دافعان رئيسان، وهما: الإيمان بالله تعالى، والإيمان بالقدر، وبيان ذلك فيما يأتي:

#### أولاً: الإيمان بالله تعالى:

التوكل مبني على الإيمان، لقول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

قال ابن القيم: «فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وإن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً، فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية»<sup>(١)</sup>.

وانتفاء التوكل يعني انتفاء الإيمان، يقول المولى عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢-٣].

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣٦٥ / ٧، أنوار التنزيل، البيضاوي ٤٩ / ٣.

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين / ١ / ٢٥٥.

ثانياً: الإيمان بالقدر:

الإيمان بالقدر من أهم ما يدفع إلى التوكل على الله؛ فالذي يعلم يقيناً أن الله تعالى قد قدر حياته ومعاده ورزقه وذريته وزوجه وأمور معاشه كلها، لا يتوانى في تسليم أموره كلها لله، ولا يقلق ولا يجزع من المستقبل، فالذي خلقه هو من قدر سير حياته، فيعيش مطمئن البال راضياً بما كتب الله له، لا يلهث وراء الدنيا ولا يتكالب على المناصب والأرزاق، فالله تعالى قد كتب له مقداراً من الخير سيأتيه دون غيره.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُوَفِّقُكُمْ وَيُنَكِّرُ مَن يَرُدُّ إِلَيْكَ أَرْزَاقَ الْعُمَرِ لَكِنِّي لَا يَعْلَمُ بَعْدَ عِلْمِي شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِعَمَلِهِمْ تُمَادُّونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَحِبُّوا لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدةٍ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعَمَلِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: ٧٠-٧٢].

وعن محمد بن عمران قال: قيل لحاتم الأصم: على ما بنيت أمرك هذا من التوكل؟ قال: «أربع خلال:

١. علمت أن رزقي ليس يأكله غيري، فلست أشغل به.
٢. وعلمت أن عملي لا يعمله غيري، فأنا

مشغول به.

٣. وعلمت أن الموت يأتيني بغتة، فأنا أبادره.

٤. وعلمت أنني بعين الله في كل حال، فأنا مستحي منه»<sup>(١)</sup>.

والتوكل على الله تعالى لا يعني ترك الأسباب بحجة كون الأمور مقدره عند الله، فترك الأسباب بدعوى التوكل لا يكون إلا عن جهل بالشرع أو فساد في العقل، فالتوكل محله القلب، والعمل بالأسباب محله الأعضاء والجوارح، ولا يكمل التوكل إلا بالعمل، فالمؤمن يعمل ويأخذ بالأسباب ثم يتوكل على الله تعالى في جلب المنفعة<sup>(٢)</sup>.

وقد أمر الله تعالى بأخذ الأسباب في كل الأحوال، تأمل قول الله تعالى: ﴿فَاتَسَوَّأْتُمْ مَنَاصِبَهَا وَكُلُّوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

فبالرغم من كون الرزق مقدراً إلا أننا مأمورون بالسعي من أجله، وبالاجتهاد في استصلاح الأرض والحصول على ثروتها<sup>(٣)</sup>.

وانظر قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُدُوا جُذُرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

فالحذر عمل بأسباب النصر، وكذلك الاستعداد للمعركة من عوامل النصر،

(١) الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ١٩٤، سير أعلام النبلاء، الذهبي ١١/ ٤٨٤.  
 (٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٧٠.  
 (٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٢٣٨.

## مواطن التوكل على الله تعالى

يدخل التوكل في تفاصيل حياتنا كلها، فلا يخلو سلوك المؤمن من استحضار التوكل على الله عز وجل في جميع أموره، ومن تلك المواطن التي نتوكل فيها على الله تعالى:

### أولاً: تحقيق المصالح ودفع المضار:

يمر الإنسان في حياته بلحظات يكون فيها بأمر الحاجة إلى توفيق رباني وحفظ إلهي، فالدراسة للامتحان والاجتهاد وحده ليس كافيًا للحصول على درجة عالية، أو التنافس على وظيفة راقية، ووجود الزوجة ليس ضامنًا لإنجاب الذرية، ووجود الذرية ليس مؤشرًا على الراحة عند الكبر، واتباع وسائل الإنذار من الحرائق والسرقات لا يضمن عدم حصول كوارث في المنزل أو المؤسسة، وكل ما يفعله الإنسان من اجتهادات لا يغير شيئًا؛ لو لم يقترن بحفظ الله تعالى ونصره وتسديده.

يقول المولى عز وجل: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وفي الآية: خطاب للمؤمنين أنه إن ينصركم الله ويشبكم ويوفقكم فلن يستطيع أحد خذلانكم أو مضرتكم، وإن ترك الله

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَقْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْغَيْلِ﴾ [الأفغان: ٦٠].

وفي الآية: تنبيه إلى ضرورة الاستعداد وعدم الاتكال على حسن النوايا وطيب الهدف، فيجب ألا نقصر في إعدادنا للقوة التي تعيننا على ملاقات الأعداء ونبذل في سبيل ذلك جهودنا وأموالنا؛ حتى نستحق نصر الله وتأيده<sup>(١)</sup>، وتدبر قول يعقوب عليه السلام لابنه يوسف: ﴿قَالَ يَبْنَؤُ لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥].

فقد أمر يعقوب ابنه يوسف عليهما السلام أن يجتنب ذكر أمر الرؤيا أمام إخوته، على الرغم من فهمه ويقينه أن الله سيجعل ليوسف مستقبلًا عظيمًا، إلا أن هذا لا يمنع من صيانة الإنسان لنفسه وحفظه لأمواله من الحسد والكيد<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٤٧٧٥.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢٥٢/٤.

نصرتكم فلن يستطيع أحد نفعكم، فتوكلوا على ربكم وثقوا بنصره، وفوضوا جميع أموركم إليه؛ حتى تناولوا إسناده وتوفيقه ونصرته<sup>(١)</sup>.

قال الراغب الأصفهاني: «إن حصل لكم النصرة فلا تعتدوا ما يعرض من العوارض الدنيوية في بعض الأحوال غلبة، وإن خذلكم في ذلك فلا تعتدوا ما يحصل لكم من القهر في الدنيا نصرة، فالنصرة والخذلان معتبران بالمآل»<sup>(٢)</sup>.

وفي السنة النبوية ما يدل على دوام توكل النبي صلى الله عليه وسلم قولاً وفعلاً، من ذلك ما ورد عن ابن عباس: (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجّد، قال: اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك حق، وقولك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، والنبون حق، ومحمد حق، اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت

المؤخر، لا إله إلا أنت، أو: لا إله غيرك)<sup>(٣)</sup>.  
فدعاؤه عليه السلام دليل على توكله القولي، واجتهاده في التنبه ليلاً والتوجه إلى الله بالصلاة والدعاء والرجاء على الرغم من كونه نبي هذه الأمة، وأول من يدخل الجنة على الإطلاق؛ دليل على أهمية العمل لأجل طاعة الله ولاستحقاق رحمته وجنته، هذا إلى جانب مواقف صلى الله عليه وسلم التي يصعب عدّها والتي جسّد لنا فيها القدوة الرائعة للتوكل على الله تعالى.

فعلى المؤمن أن يقتدي برسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم الذي علّمنا ألا ندع التوكل على الله في كل صغيرة وكبيرة؛ فهو راحة وطمأنينة واستقرار للرضا في قلب المؤمن، بالإضافة إلى أنه يعود على الإنسان بالعزة والاستغناء عن البشر.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ...﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه ومغنيه عن سواه<sup>(٤)</sup>.

فيجب أن نأخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وينبغي أن نتوكل على الله وكان الأسباب ليست بشيء، فكأن الطريق الصحيح عن يمينه واد سحيق، وعن يساره واد سحيق، إن أخذنا بالأسباب واعتمدنا

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا انتبه بالليل ٧٠ / ٨، رقم ٦٣١٧.  
(٤) انظر: تفسير السمرقندي، ٣ / ٤٦١.

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكّي بن أبي طالب ٢ / ١١٦٢.  
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ٣ / ٩٥٥.

سلك النبي صلى الله عليه وسلم مسلك الثقة واتخاذ الأسباب في شؤون الجهاد والهجرة.

فقد رتب أمور الهجرة بشكل دقيق حتى يتجنب اللحاق به من قبل المشركين، وقد حرص على عدم إلحاق الأذى بالمسلمين فجعلهم يهاجرون قبله، وأبقى معه أبا بكر رضي الله عنه، وأمره بتجهيز الدواب للسفر، ثم خرج خروج الواثق بربه المستند إلى الحق، فمر من بين المشركين وهم ينتظرون رؤيته ليقتلوه، فأراد الله لعبده المتوكل النصر، فأعمى أبصارهم وحفّه برعايته تعالى.

ثم التقى عليه السلام بخليته الصديق رضي الله عنه، فانطلقا تحفهما رعاية الرحمن، واتخذ صلى الله عليه وسلم دليلاً خبيراً ليدله على الطريق، كما استعان بمن يمسح آثار خيله أثناء الرحلة حتى لا يكتشف المشركون أمره.

وقد أطل الرحلة التي تحتاج ثلاثة أيام إلى أسبوع؛ تحقيقاً للأمن، وتمويهاً للعدو، فأدلى إلى غار ثور حتى يهدأ الطلب وتفتر الهمم في اقتفاء أثره، فيتمكن من السير وهو آمن، وطلب في هذه الفترة من ابن أبي بكر موافاته بأخبار المشركين أولاً بأول، واختار أسماء بنت أبي بكر لتزويدهم بالغذاء؛ فقد كانت تستعد للمخاض ولم تكن تحركاتها

عليها فقد وقعنا في وادي الشرك، وإن لم نأخذ بها وقعنا في وادي المعصية والتواكل، لكن الموقف الأعقل والأكمل أن نأخذ بالأسباب؛ لأنها طريق الأهداف، ثم نتوكل على الله؛ لأن الله جل جلاله لا يمكن أن يعطي لهذه الأسباب فاعلية إلا بمشيئته وقدرته.

### ثانياً: الجهاد في سبيل الله:

التوكل في ميدان الجهاد في سبيل الله من أهم الأمور التي تعود على المؤمنين بالنصر والتوفيق، وقدوتنا في ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب السيرة الزاخرة بالتوكل على الله تعالى، وجهاده منذ نزول الوحي عليه وبدئه الدعوة السرية، ثم انتقاله للدعوة الجهرية، فالهجرة والحروب كلها تجسد لهذا الأدب العظيم الذي لا بد أن نحتذيه في جهادنا ضد أعداء الإسلام.

قال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ فَطَا غَيْظَ الْقَلْبِ لَأَنْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٦١﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩-١٦٠].

وانطلاقاً من الأمر الإلهي بالتوكل

لشير شكوك قريش.

ورغم بذله عليه السلام للجهد في التخفي إلا أن قريشاً وصلت إلى الغارا لكن لا يخشى من وثق بالله وبذل في سبيل ذلك كل الأسباب، فلا يضيع الله عمل المتوكل العامل، فكان مطمئناً ومثبتاً لقلب أبي بكر رضي الله عنه (١).

قال تعالى: ﴿إِلَّا نَضْرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

[التوبة: ٤٠].

هذا هو نبينا القدوة الذي لم يركن إلى أنه رسول من رب العالمين بعثه ليلبغ دينه، ولم ينتظر النصره وهو قاعد في بيته، فالإنسان - وإن سمى رسالته وتعلقت بالله تعالى - عليه أن يبذل من أجلها الأسباب؛ حتى تتحقق الغاية منها.

وفي حروبه صلى الله عليه وسلم مع المشركين نماذج كثيرة من التوكل، أهمها غزوة بدر، أولى الغزوات التي خرج فيها

المسلمون للقاء من يفوقهم عدة وعتاداً، خرجوا واثقين بنصر الله مصطحبين ما استطاعوا جمعه من عتاد، وقد لا تتصور اطمئنان هذه الفئة وهم أمام جمع غفير من الجنود المدججين الذين أرادوا استئصال الإسلام، لكنه التوكل على الله والثقة بنصره التي لا يوازيها شيء.

قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَفِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ إِذْ يُغِيثُكُمْ النَّعَاسَ أَمْنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَيُرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

[الأنفال: ٩-١٢].

قال الزجاج: «أمر بدر كان من أعظم الآيات؛ لأن عدد المسلمين كان قليلاً جداً، وكانوا رجالاً، فأيدهم الله، وكان المشركون أضعافهم، وأمدهم الله بالملائكة» (٢).

وقد اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الاستعداد لغزوة الأحزاب،

(١) انظر: الهجرة النبوية، محمد السيد الوكيل ١٧٩/١.

(٢) معاني القرآن وإعراجه ٢/٤٠٤.

سمة المؤمنين؛ لأن الرزق مكفول بربوبية الله تعالى للمؤمن والكافر إن عمل الاثنان بالأسباب.

يقول المولى عز وجل: ﴿وَكَيْفَ يَمُنُّ دَابَّةً لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿١١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَعْدِلُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ [العنكبوت: ٦٠-٦٢].

فالله تعالى يرزق بفضله جميع عباده، ولا أدل على كرمه تعالى من امتنانه بكنوز قارون التي بسطها له بسطاً، فله خزائن السماوات والأرض، وهو الممتن علينا بالطعام والشراب والذرية وكل ما نملك، وهو المتكفل بأرزاق المستقبل.

قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣].

والآية الكريمة تلفت انتباه الإنسان إلى السبب الأهم للرزق، فالسبب الظاهر للرزق هو رعاية الأرض التي تخرج النبات والثروات، لكن المؤمن العاقل عليه أن يرفع بصره نحو السماء؛ فالسبب الحقيقي للرزق هو الله تعالى، الذي يرزق عباده بفضله لا بجهدهم، فالأصل أن يتوكل الإنسان على الله تعالى جازماً أنه وحده هو المانح

التي تكالب فيها المشركون واليهود على المسلمين، وكانت أعدادهم ثلاثة أضعاف عدد المسلمين، لكن هذا لم يفت في عضد المؤمنين الصادقين، فحفر رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الصحابة الكرام الخندق في جو من البرد والجوع، لا يوازرهم سوى انتصارهم لدين الله تعالى. وقد منَّ الله عليهم بأن أربع الأحزاب وشردهم<sup>(١)</sup>.

قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمَنَّا لُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوُّهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ [الأحزاب: ٢٥-٢٧].

فالله تعالى هو ناصر المؤمنين المتوكلين.

قال السعدي: «لا يغالبه أحد إلا غلب، ولا يستنصره أحد إلا غلب، ولا يعجزه أمر أراده، ولا ينفع أهل القوة والعزة، قوتهم وعزتهم، إن لم يعينهم بقوته وعزته»<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: طلب الرزق:

التوكل على الله تعالى في طلب الرزق

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/٢٦٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ١/٦٦٠.

عجبية الأسباب من حيث الأخذ والترك إلى ثلاثة أسباب:

أولها سبب معلوم قطعاً قد أجراه الله، وهو سنة من سنن الدنيا، فهذا لا يجوز تركه، كالأكل لرفع الجوع واللباس لرفع البرد، والثاني: سبب مظنون، كالتجارة وطلب المعاش، وشبه ذلك، فهذا لا يقدر فعله في التوكل، فإن التوكل من أعمال القلوب لا من أعمال البدن، ويجوز تركه لمن قوي عليه، لكنه أخذ بأسباب الرزق وفعله محمود، والثالث: سبب موهوم بعيد، فهذا يقدر فعله في التوكل، ثم يبين أن الثالث مثل طلب الكيمياء والكنوز وعلم النار والسحر، وشبه ذلك<sup>(٣)</sup>.

قال الزحيلي: «ومن شروط التوكل الصحيح: تنفيذ الأحكام الشرعية، ومراعاة السنن المطلوبة في الحياة، من اتخاذ الأسباب ثم تفويض الأمر إلى الله تعالى»<sup>(٤)</sup>.

وقد حث السنة النبوية على التوكل في طلب الرزق، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً)<sup>(٥)</sup>.

(٣) انظر: البحر المديد ١/٤٢٨

(٤) التفسير المنير ٨/٩.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب

للأرزاق، وأن يعمل بأسباب تلك الأرزاق حتى ينال رحمة الله تعالى وفضله.

يقول سيد قطب في تعليقه على الآية: «والقلب المؤمن يدرك هذه اللفتة على حقيقتها، ويفهمها على وضعها ويعرف أن المقصود بها ليس هو إهمال الأرض وأسبابها، فهو مكلف بالخلافة فيها وتعميرها، إنما المقصود هو ألا يعلق نفسه بها، وألا يغفل عن الله في عمارتها، ليعمل في الأرض وهو يتطلع إلى السماء، وليأخذ بالأسباب وهو يستيقن أنها ليست هي التي ترزقه، فرزقه مقدر في السماء، وما وعده الله لا بد أن يكون»<sup>(١)</sup>.

وقد وعد الله عز وجل المتوكل عليه بكفايته ورزقه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ٣ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ٤﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وفي الآيات بيانٌ لضرورة تقوى الله في أمور الطلاق أو الإمساك، وحض على التوكل على الله؛ لأنه الرزاق، ولأن الله تعالى بالغ أمره، توكل الإنسان عليه أو لم يتوكل عليه، غير أن المتوكل يكفر عنه سيئاته، ويعظم له أجرًا<sup>(٢)</sup>، وقد قسم ابن

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٣٨١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/٤٧.

عظمت خبرته.

وقد خلد التاريخ نماذج عديدة من الدعاة المتوكلين الذين لم يعتمدوا على سمو الهدف وربانية مصدر الرسالة، بل اجتهدوا وأخذوا بأسباب النجاح حتى تسمو دعوتهم وتنتصر فكرتهم، ومثالنا على أولئك الدعاة مؤمن ياسين الذي بذل في سبيل دعوته كل جهده.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ يُهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِيدَنْ الْارْتِمَاءُ لِي لَأَنْقَضَنَّ عَنْهُمْ سَفْعَهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقَدُونَ ﴿٢٣﴾ إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنْ أَمْسَتْ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

[يس: ٢٠-٢٧].

ولعل المتأمل في الأسباب التي اتخذها هذا الداعية المخلص المتوكل على الله تعالى في دعوته لقومه المكذبين يعلم أنه استحق دخول الجنة بحق، ومن هذه الأسباب ما يأتي<sup>(٢)</sup>:

❖ السرعة وعدم التباطؤ في الدعوة،

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١٦٣/٧-١٦٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٦٥/٢٢.

وفي الآن نفسه أمر المؤمن بالأخذ بأسباب الرزق اقتداءً بأنبياء الله الكرام، فعن المقدم رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (ما أكل أحد طعاماً قط، خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده)<sup>(١)</sup>.

أما ترك الكسب والاعتماد على الخوارق والجوائز الربانية فهذا سمت المتقاعسين الذي ذمه الله عز وجل؛ لأن فيه إبطالاً لقانون الأسباب والمسببات الذي وضعه الله في الكون، ودعوة إلى التكاسل والقعود ومخالفة لأمر الله تعالى بإعمار الأرض بالعمل.

رابعاً: الدعوة إلى الله تعالى:

الدعوة مضممار مهم يخوضه المسلم بجدّ وحب وإخلاص مقرون بالعلم، ولا يتأتى لنا جني ثمرات الدعوة إلا بعد التوكل على الله عز وجل والثقة بأنه تعالى إن شاء أجرى الحجة على لسان الداعية وقلمه، فجعل القلوب تنجذب إليه وتنقاد إلى ما يدعو إليه، وإن لم يشأ فلن يكتب للدعوة نجاح، مهما بلغت حجة الداعية، ومهما

في التوكل على الله ٤/٥٧٣، رقم ٢٣٤٤. (١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده ٥٧/٣، رقم ٢٠٧٢.

بثواب المؤمن على الرغم من إيدائهم له.

قال القرطبي: «وفي هذه الآية تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم عن أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار وأهل البغي، والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، والاشتغال بذلك عن الشماتة به والدعاء عليه»<sup>(١)</sup>.

ولعل التوكل على الله تعالى هو المسهل الرئيس للدعوة الإسلامية، فلو استحضر الإنسان عند دعوته ما قد يعود عليه من هموم وغموم، وانتقادات وإعراض، فإنه سيترك أمر الدعوة، لكنه مع التوكل على الله تعالى يشعر بقوة وعزة ومناصرة من الله تعالى، فيهون عليه أمر الدعوة، ومن الأمور التي تبعث الداعية على التوكل:

- ❖ رسوخ التوحيد في قلبه، وإدراكه لمعاني أسماء الله وصفاته العلاء، والثقة به عز وجل.
- ❖ معرفة الداعية إمكانات نفسه، وإدراكه لضعفه وعجزه إن حرم التوفيق من الله.
- ❖ المعرفة بفضل التوكل وأحوال المتوكلين من السلف والخلف.

وفي سيرة أنبياء الله الكرام جميعاً، وهم أوائل الدعاة إلى الله تعالى، نماذج عظيمة

فحينما استشعر حقيقة الإيمان، تحركت هذه الحقيقة في ضميره، فلم يتوان في الإسراع من أجل الدعوة إليها.

❖ حضوره من أقصى المدينة، وهو مكان بعيد، وهذا يؤكد إخلاصه في الدعوة ما جعله يحتمل مشاق الطريق من أجل إنجاح دعوته.

❖ سعيه، والكلمة دالة على إسرعه مع بذله الجهد في المجيء للدعوة؛ إنقاذاً لهم من ظلمات الكفر.

❖ رفقته ولينه مع قومه، واستعطافه لهم بقوله «يا قوم».

❖ لفته أنظارهم إلى ميزات الأنبياء من حيث الاهتمام وعدم طلب المال.

❖ مخاطبته لنفسه من منطلق إشعارهم أنه يخشى عليهم ما يخشى على نفسه ويحب لهم ما يحب لنفسه، واجتهاده في تغيير الأساليب لفتاً لانتباههم.

❖ تنبيههم إلى أن الله فاطر النفوس وإليه المعاد، وهو الخالق الذي بيده النفع والضرر، وعنده الجزاء بالثواب والعقاب دون سواه.

❖ تكرار الدعوة وطلبه أن يهتموا بسماعه وفهم ما يقوله.

❖ تحمل تعذيبهم له مقابل إيصال الحق ونشر دين الله، وحرصه على إعلامهم

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥/١٧.

يلزم على المؤمن استحضار قوة الله تعالى ومساندته عند مواجهة الظالمين والمجرمين، والتوكل عليه تعالى في ذلك، فالطاقة البشرية قاصرة، سيما وإن كانت تتجه لمحاربة الظالمين، فالظالم لا يخشى الله، ولا يردعه شيء، وهو مستعد لبذل أرخص الوسائل وأرذلها للحصول على غرضه، وقد مرّت قصص عبر التاريخ تجسد أدب التوكل على الله في محاربة الظلمة، من ذلك قصة موسى عليه السلام مع الطاغية فرعون.

تأمل قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرَهُنَّ فَأَنَّكَ أَكْثَرُ الْعَادِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَاتٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْفَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأعراف: ١٠٣-١٠٧].

إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَإِنَّكِ مِنَ الصّٰلِحِينَ ﴿١٣١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٣٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا مَنَعَكَ إِذْ سَأَلْتَهُمْ لَاقِطِيكُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَأَسْوَفَ فَعَلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ لَأَصْلَبُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ قَالُوا إِنَّا لَمَكْرُؤٌ خَالِفٌ ﴿١٣٥﴾ وَمَا لَنَا بِمَرْيَمَ أَنْ نَبْعَثَ عَلَيْهَا عَسْرًا ﴿١٣٦﴾ وَكَيْتَابِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْ رَبَّنَا أَنْ يَرْفَعْ عَلَيْْنَا صَبْرًا

من التوكل على الله في الدعوة، وعلى رأسهم إمام المتوكلين محمد صلى الله عليه وسلم.

تأمل قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨-١٢٩].

وقد بين الله تعالى فضل النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه جاء العرب من جنسهم ومن نسبهم، فهو عربي قرشي مثلهم، يخاف عليهم سوء العاقبة والوقوع في العذاب، حريص ألا تفلت منه أي نفس إلى النار، وهو رؤوف رحيم بحالهم، قيل: لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: ﴿رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ثم يواسي الله تعالى نبيه الكريم قائلاً: فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك فاستعن وفوض أمرك إليه، فهو كافيك معرفتهم ولا يضرؤنك، وهو ناصرهم عليهم، وهكذا كان فعله عليه السلام دومًا، فهو الصبور على أذاهم، الحريص على دعوتهم، المتوكل على الله في كل حال<sup>(١)</sup>.

خامسًا: مواجهة الظالمين والمجرمين:

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٢٥.

وَوَفَّقْنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٣٦﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ  
 أَنْتَرُوا مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَوَدَّرَكْ  
 وَءَالِهَتَكُ قَالَ سَتَقْبِلُ آتَاءَهُمْ وَتَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ  
 وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٣٧﴾ قَالَ مُوسَى  
 لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ  
 لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ  
 لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ [الأعراف: ١٢١-١٢٨].

وفي الآيات الكريمة تصوير دقيق لتفكير وسلوك الطغاة، فهم يخشون الدين؛ لعلمهم أن الأمة إن التزمت به ووحدت خالقها فستنصرف عن تقديس الظالمين ورجائهم في أمور حياتهم، وستخرج من ظلمات التبعية إلى نور التحرر من القيود البشرية والانقياد لله تعالى وحده دون شركاء، وهذا ما حصل عندما طلب موسى من فرعون أن يترك بني إسرائيل ليعبدوا الله وحده، فأدرك فرعون وملؤه أن هذا يعني سلب السلطة منهم، فأرادوا إحراجه بتقديم الحجة على صدقه أمام الناس.

وقد أظهر الله على يديه معجزاته التي أبهرت سحرة فرعون كلهم، فأمنوا، وواجهوا ذلك الطاغية المستبد الذي أراد استئصال هذا الدين وأتباعه، وعلى الرغم من تهديده ووعيده إلا أن المؤمنين أيقنوا أن مردهم إلى الله تعالى طال عمرهم أم قصر، وأنهم اختاروا الموت في سبيل الله على الموت كفاراً، وواساهم نبيهم الكريم

وذكرهم بصفة المؤمن، وهي الاستعانة بالله الكريم، السند المتين لعباده، الذي يكفيهم ما أهمهم، فليس لهم غير الله تعالى، فهو الملاذ الحصين، وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي يقدره بحكمته وعلمه، وإن الأرض لله، وما فرعون وقومه إلا نزلاء فيها، فيجب ألا ينظر إلى الطاغوت أنه مكين في الأرض غير مزحج عنها، فصاحب الأرض ومالكها هو الذي يقرر متى يطردهم منها، وإن العاقبة للمتقين حتماً، فلا يخالج قلوب الداعين إلى رب العالمين قلق على المصير<sup>(١)</sup>.

هذا هو نبي الله الذي قال عنه جل وعلا:  
 ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ مَأْمَنُومٌ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ قَوْلُوا  
 إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ ﴿٨٤﴾ [يونس: ٨٤].

فهو الذي يذكر قومه دوماً بحقيقة الإيمان واستلزامه للتوكل على الله وحده دون سواه.

وقد واجه إبراهيم عليه السلام أعتى الظالمين، فقد جسد النمرود مثالاً للطغيان. يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُعْبَدُ قَالَ أَنَا أُعْبَدُ وَأُمِّيْتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٢٦﴾

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٥٥.

[البقرة: ٢٥٨].

الحجة من تحايل النمرود بما عارضها به من الشبهة، أحب أنه يحتج عليه بما لا تحايل فيه؛ قطعاً له واستظهاراً<sup>(١)</sup>.

هذا هو نبينا إبراهيم عليه السلام الذي ما ترك التوكل على الله تعالى في دعوته.

يقول الحق تعالى داعياً إلى التأسّي به عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَفِرِّنَ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ وَإِنَّا عَلَىكَ تَوَكَّلَانَا وَإِنَّكَ أَلَمَّصِيرُ

[الممتحنة: ٤].

وقد واجه ذو القرنين ظلم يأجوج ومأجوج بالتوكل على الله مع الأخذ بأسباب التوكل واتخاذ عوامل الحيطة منهم.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ۗ (١٣) قَالُوا يَا بَنِي آدَمَ إِنَّا فَتِنَاكَ وَإِنَّكَ لَفِي الضَّلَالَةِ فَذُكِّرْتُم بَلْ يَرَوْنَ كِتَابًا مُّبِينًا فَتَوَكَّلُوا عَلَيَّ وَلَا تَنسَوْنَ كَيْدَ عَدُوِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۗ (١٤) قَالُوا مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۗ (١٥) ءَأَتُونِي زُبُرًا لَّعِيدٍ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ۗ (١٦) فَمَا اسْتَسْمِعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَسْمِعُوا لَهُ نِقْبًا ۗ (١٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا

فالنمرود بن كنعان هو أول من تجبر في الأرض وادّعى الربوبية، وكان إبراهيم عليه السلام قد دخل بلده، فأرسل إليه النمرود، وقال: من ربك؟ ويظهر أنه لم يسأل إبراهيم ليعرف الجواب، بل سأله استهزاءً، فهو يعلم أنه نبي الله تعالى، وأنه يدعو إلى توحيد الله وعدم الإشراف به، فرد عليه إبراهيم واثقاً متوكلاً متسلحاً بالإيمان والحجة التي أجزاها الله على لسانه عليه السلام: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُعَيِّدُ وَيُمْيْتُ﴾.

فما كان من تفكيره القاصر، وغروره المتغلغل في أعماق نفسه إلا أن يعمد إلى سجنائه، فيقتل من صدر بحقه التخلية، ويخلي من صدر بحقه القتل، واعتقد أنه بذلك قد أبطل حجة نبي الله إبراهيم، فسأله إبراهيم حينها ما إن كان يستطيع الإتيان بالشمس من المغرب؛ فالله يأتي بها من المشرق.

وقد ذكر الماوردي أن لتحول إبراهيم للحجة الثانية دون البقاء لنصرة الحجة الأولى احتمالين:

أحدهما: أنه قد ظهر من فساد قول النمرود ما لم يحتج معه إبراهيم عليه السلام إلى النصرة، ثم أتبع ذلك بغيرها تأكيداً عليه في الحجة.

والاحتمال الثاني: أنه لما كان في تلك

(١) انظر: النكت والعيون ١/ ٣٢٩-٣٣٠.

﴿١٨﴾ [الكهف: ٩٣-٩٨].

يعلمه ويقدره سبحانه (٢).

سادساً: مواجهة الشيطان وأعدائه:

يتوجب على المؤمن إخلاص التوكل على الله تعالى في مواجهة الشيطان وأعدائه، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [المجادلة: ١٠].

فلولا التوكل على الله لن يكون للإنسان قدرة في مجابهة قوى الشر العظيمة التي يستخدمها الشيطان في إغواء العباد، ففي الآية الكريمة على لسان إبليس لعنه الله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأَعُوذَنَّهُمْ أَجْمِينَ﴾ (٨٢) [الاعبادك منهم المخلصين] (٨٣) [ص: ٨٢-٨٣].

أي لأحسنن لهم معاصيك، ولأحببنا إلى قلوبهم حتى يرتكبوها، ولأضلنهم عن سبيل الرشاد إلا من أخلصته بتوفيقك فهديته، فإن ذلك ممن لا سلطان لي عليه ولا طاقة لي به (٣).

وكان الرد الإلهي المتحدي: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ يَبْعَكَ مِّنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ كُلِّ جَزَاءٍ مَّوْفُورًا﴾ (٦٣) وَأَسْتَفْزِزُ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِم بِخِيلِكَ وَرَجَلَكَ وَشَارِكَهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتَهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ (٦٥) [الإسراء: ٦٣-٦٥].

وقد ورد في تفسير الآيات أن ذي القرنين ملكٌ حكم الدنيا بأسرها، فاستغاث به قومٌ ليحميهم من يأجوج ومأجوج، وهم جماعة عظيمة من نسل ولدي يافث بن نوح، اشتهروا بالكثرة وقد هابهم أولئك القوم وخشوا ظلمهم، فسألوا ذا القرنين أن يبني لهم سدًا منيعًا يحميهم من أذى قوم يأجوج ومأجوج مقابل خرج من المال، فما كان منه إلا أن تواضع لله ولم يغتر بقوته، بل اعترف بفضل الله عليه أن آتاه الصحة والعافية التي هي خير من أموالهم التي سيجمعونها له (١).

ووافق أن يبني السد متوكلاً على الله وحده، وقد أخذ بأسباب إنجاح مشروعه فطلب منهم إعانتة بالرجال وعمل الأبدان والآلة التي يبني بها السد، وهذا بداية النجاح في العمل، فإن القوم لو جمعوا له خرجًا، لم يعنه أحد، ولتركوه يبني، فكان عونهم أسرع في إنجاز العمل وإنجاح المشروع، واستخدم المواد المناسبة لتقوية السد، من حديد وحرارة ونحاس، وهنا يتجلى ظهور العمل المخلص، وهو أهم مقومات التوكل، ثم أقر ذو القرنين مرة أخرى بفضل الله عليه، وأن بقاء السد مرهون بإرادة الله، وأن المولى سيشاء أن يجعله دكاء في وقت

(٢) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/٣٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/١٠٣.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/١٩٦، فتح القدير، الشوكاني ٣/٤٣٠.

وأعانه على ذلك استعانته بالله تعالى وتوكله عليه حق التوكل.

قال تعالى مصورًا لنا تفاصيل القصة:

﴿وَرَوَدَتْهُ الْمَوْتُ وَرَبُّهَا عَنْ نَفْسِهِ وَعَلَّقَتْ الْأُبْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَدْ هَمَّتْ بِرَبِّهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَمَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّعْرَى وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْبَقَنَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيْدَهَا لِدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

[يوسف: ٢٣-٢٥].

حتى قوله عز وجل: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾

[يوسف: ٣٣-٣٤].

فقد عاش يوسف عليه السلام في كنف عزيز مصر، ويوسف معترف بفضلته وفضل زوجته عليه، وقد تعرض لفتنة امرأة العزيز وهو في مرحلة النضج والشباب، ومن طلبت منه الفاحشة هي صاحبة الفضل عليه وهي متزينة متأهبة له، وقد أوصدت الأبواب وأخلت الأجواء لوقوع الجريمة، ورغم كل هذه العوامل التي اجتمعت على نبي الله المعصوم إلا أنه واجه تلك المحنة

فقد أمره الله تعالى أمر إهانة أن يبذل كل جهده وأن يقطع من يشاء عن الحق، وأن يستخدم كل صوت له ولأعوانه في الوسوسة والإبعاد عن الدين، وأمره أن اجمع في سبيل إغوائهم خيولك ورجالك التي تمشي في الإفساد، وشاركهم في أموالهم بأن تجعلهم ينفقونها على المعاصي واجعل من أولادهم بالزنا لك نصيب، أو سيطر على عقولهم فاجعلهم يهودون أبناءهم وينصرونهم، ومنهم بالأمان الكاذبة أن لا جنة ولا نار، وأنهم غير محاسنين على ما يفعلون، فعباد الله المؤمنون لن يغتروا بكذبك، فهم المخلصون في عبادتهم، والله كافهم وعاصمهم من سيطرة إبليس عليهم وهو الحافظ لهم من كل سوء<sup>(١)</sup>.

وعلى قدر هذا التحدي الكبير يجب أن يعمل المؤمن لحماية نفسه من سيطرة الشيطان وأعوانه، فهم لا يألون جهدًا في إسقاطنا في المعصية مهما صغرت أو كبرت.

ولنا في قصة نبي الله يوسف عليه السلام نموذج رائع في تحدي الشيطان وأعوانه، فبالرغم من تعرضه عليه السلام لضغوط شديدة من أجل الوقوع في الرذيلة، إلا أنه واجهها بقوة نابعة من إيمانه بالله تعالى،

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠١٠/١٠.

بالتعفف الشديد عن الرذيلة<sup>(١)</sup>.  
ومن الأسباب التي أخذ بها يوسف عليه السلام في توكله على الله واستعانت به وحده على مواجهة الشيطان:

- ✽ استعاذته بالله تعالى عندما غلقت عليه الأبواب.
- ✽ استحضاره وتذكيره إياها بأن الإحسان لا يرد إلا بمثله.

- ✽ بذل الجهد واستباق الباب، وعدم القعود وانتظار إجباره على ارتكاب المعصية.

- ✽ الرضا بالمكوث في السجن ظلمًا على السقوط في الرذيلة، وهذا قمة الاجتهاد في البعد عن المعصية.

- ✽ اللجوء إلى الله تعالى والتوكل عليه والافتقار إليه وطلب العون والسند في مجابهة المحنة.

ولنا في هذه القصة القدوة الحسنة، فشبابنا وبناتنا الآن يتعرضون لمحن كثيرة تتعلق بالعفة، فنجدهم يستسلمون للشيطان ويسمحون له بأن يتحكم في عقولهم ويزين لهم المنكر، على أنه علاقة اعتيادية أو علاقة مبدئية لحصول الزواج، وكذلك يتدخل الشيطان في كل أمور حياتنا، فهو الذي يوسوس للسارق أن يستكثر من ماله، وللموظف ألا يؤدي ما عليه بأمانة، وللأبناء

### سابعًا: الإصلاح:

بذل أنبياء الله الكرام طاقاتهم القصوى من أجل إصلاح شؤون أقوامهم، وقد اعتمدوا في جهودهم الإصلاحية على توفيق الله تعالى ووكلوه أمورهم.

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١٠٨/٢.

من فساد اجتماعي واقتصادي في المجتمع، واستنكر القوم على شعيب أن يدعوهم إلى ترك ما كان يعبد آباؤهم من أوثان، وكذلك ترك التطيف في البيع والشراء، ولم يعجبهم ذلك، بل استهزؤا به عليه السلام وبصلاته التي جعلته يقتنع بأفكار مخالفة لأفكارهم.

لكنه خاطبهم باللين والرفق، وبين لهم أن الله تعالى قد امتنّ عليه بالرسالة والهداية فأراد أن يهديهم إلى الحق كما هداه الله، وأنه لا يصح أن يخون الوحي، ويترك النهي عن الشرك والظلم، وأنه يريد أن ينصحهم بما نصح نفسه، وأنه لن ينهاهم عن الشيء ويأتيه، بل سيكون القدوة لهم، ووضح أن غرضه في كل ما يفعل هو إصلاح عقيدتهم وشريعتهم وأمور مجتمعهم، ثم أعلن أن التوفيق الذي ينتظره هو من عند الله وحده وأنه عليه السلام متوكل على الله معتمد على قوته وحكمته وقدرته عز وجل في تيسير أمور دعوته، فالله تعالى هو خالقنا وإليه نعود<sup>(١)</sup>.

وقد بين الله تعالى أثناء سرد القصة الأسباب التي اتخذها شعيب عليه السلام في توكله على الله، فلم يكتف عليه السلام على التوكل القلبي والإعلان القولّي عن توكله، بل عمل من أجل الإصلاح الذي

قال تعالى مصوّراً قصة سيدنا شعيب عليه السلام مع قومه: ﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلُوتُكَ نَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُكُمْ إِلَيَّ مَا أَنْهَيْتُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلَ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا يَمَّا قَوْلُ وَإِنَّا لَنَرَنَّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْ لَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بَعِيزٌ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا إِنَّ رَبِّي يَمَّا تَعْمَلُونَ مُخِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْقُورُ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ [هود: ٨٧-٩٣].

وقد كان من أهم الأمور التي دعا شعيب عليه السلام قومه إليها بجانب توحيد الله هو ترك التطيف في الكيل والميزان، فقد اشتهر عنهم هذا السلوك المخالف لمبدأ العدل الذي دعا إليه الله تعالى على لسان جميع أنبيائه، ولا يخفى ما يتبع سلوك الظلم

(١) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ١٦٥-١٦٦، محاسن التأويل، القاسمي، ٦/ ١٢٥.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمَسِّكُونَ بِالْكَفِّبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضْلِعِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠].

ثامناً: إبرام العقود والمعاهدات:

أمر الله سبحانه وتعالى نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه عز وجل في عهوده، لا سيما مع غير المؤمنين، فالله تعالى الخبير بصدقهم وكذبهم، وهو كافيه شرهم وهو الذي لا يضر عباده المتوكلين مهما مكر بهم الماكرون.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلَبُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠-٦١].

وفي الآية أمر للمسلمين بالاستعداد لقتال الأعداء، واتخاذ ما من شأنه تقويتهم على الأعداء، من أدوات الرمي والسيوف والنبال والخيول وغيرها، حتى يخاف الكفار، والمنافقون وأهل الكتاب الذين لا يعرف المسلمون أشخاصهم، لكن الله هو العليم الخبير الذي يعرفهم، ثم أمر الله تعالى نبيه الكريم أن يجنح للسلام إن هم جنحوا له ولجأوا إليه، وأن يعاهدهم

أخبر قومه به، ومن اجتهاداته الإصلاحية ما يلي:

• تكرار الدعوة لقومه، والصبر على استهزائهم به وتهديدهم له بالرجم والقتل.

• كان قدوة حسنة لهم، ووعدهم ألا ينهاهم عن شيء ويأتيه.

• بين لهم حسن نيته وإرادته إصلاح شؤونهم الدنيوية والأخروية.

• حذّره أن يحملهم بغضه إلى الكفر بالله، وإيثاره إحقاق حق الله بغض النظر عن حقه.

• ذكّره بما حل بالأقوام السابقة وبالعذاب الذي أصابهم.

• جذبهم إلى التوبة باللين والرفق، وأملهم برحمة الله تعالى وودّه.

• أعلمهم بعظمة الله تعالى، وأنه الأحق بالخشية؛ فهو العالم بالظواهر والخفايا.

• توعدهم بالعذاب المرتقب إن لم يؤمنوا بالله ويتركوا ما هم عليه.

هذا نبي الله الكريم الذي لم يقصّر في بذل الجهد لإصلاح عقيدة قومه وسلوكهم، وهكذا لا بد أن نكون، فنبدل ما نستطيع من أجل إعلاء كلمة الله تعالى، لا يمنعنا من ذلك خوفٌ من أي شيء؛ فالله تعالى وكيلنا، عليه نعلم في كل أمر، وهو الذي وعد عباده المتوكلين المصلحين بالشواب.

رب العزة أن هناك من المنافقين وضعاف القلوب من يعاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة والقتال معه، ثم ما إن يخرجوا من عنده حتى يتساروا فيما بينهم على خلاف ذلك، والله تعالى يعلم ما يضمرونه من مكر لرسوله الكريم، ويقول لمحمد صلى الله عليه وسلم: اصفح عنهم واحلم عليهم ولا تؤاخذهم، ولا تكشف أمورهم للناس، ولا تخف منهم ومن مكرهم، وكفى بالله ولياً وناصرًا ومعينًا لمن توكل عليه وأتاب إليه، فالتوكل هو أساس الاطمئنان، وهو سمة الأنبياء الذين لطالما عاهدوا أقوامهم، ولم يقلقوا من كيد الأعداء فالله تعالى وكيلهم وسندهم وحاميهم وكافهم شرور الكافرين<sup>(٢)</sup>.

ويبرم معهم العقود على عدم التعدي على المسلمين أو المساس بهم.

وقد أمر رب العزة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يتوكل عليه في إبرام هذه المعاهدات وألا يخاف من إبطانهم الخداع والمكر، فإن الله هو العاصم لرسوله والمؤمنين من مكرهم، وهو الذي يحيقه بهم إن قصدوه، فجاء الأمر له عليه السلام بتفويض أمره إلى الله فيما عقده مع العدو ليكون عونًا له في جميع أحواله، فهو السميع لأقوالهم العليم بما في صدورهم من نيات<sup>(١)</sup>.

وفي موضع آخر، يقول الحق عز وجل:

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾<sup>(٨٠)</sup> وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾<sup>(٨١)</sup>

[النساء: ٨٠-٨١].

فقد بين الله تعالى أن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم هي طاعة الله عز وجل وذلك لأنه عليه السلام ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾<sup>(٢)</sup> **﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾**<sup>(٤)</sup> [النجم: ٣-٤].

وأن من تولى عنك يا محمد فاتركه، فلا عليك منه، إن عليك إلا البلاغ، ثم يذكر

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير، الصابوني ٤١٥/١.

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٦٥/٣، لباب التأويل، الخازن ٣٢٤/٢.

ثمرات التوكل

للآداب الربانية آثار يشاء الله تعالى أن تظهر عاجلاً، فيرى المؤمن المتحلي بها أثرها في حياته وفي نظرة الناس إليه، ثم يكرمه الله بها في الآخرة فيعطيه جزاءه الأمثل، وللتوكل على الله تعالى ثمرات عاجلة وآجلة، نبئها كما يلي:

أولاً: ثمرات التوكل في الدنيا:

١. محبة الله للمتوكلين.

تأكد في القرآن الكريم حب الله عز وجل للمتوكلين، تأمل قوله تعالى: ﴿وَسَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

فقد دعا رب العزة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم إلى مشاورة المؤمنين في أموره، ثم قال له: إذا اطمأن قلبك لما اخترت ففوض أمرك إلى الله واعتمد عليه، وامض بجوارحك، فالله يحب المتوكلين، ومحبته تعالى هي أعظم محبة وهي التي تجلب النصر والهداية والتوفيق<sup>(١)</sup>.

يمتن الله تعالى على من يحب من عباده بأن يجعل له حباً في قلوب الناس.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٢٣، السراج المنير، الخطيب الشربيني ١/ ٢٦٠.

[مريم: ٩٦].

والمعنى: إن الذين صدقوا الله ورسوله، وعملوا بما أمرهم من آداب وشيم - ومن أجل تلك الآداب التوكل - سيوقع الله محبتهم وألفتهم في صدور عباده<sup>(٢)</sup>.

وذكر أن الله تعالى سيحدث لهم في القلوب مودة من غير تودد منهم، يحبهم الناس، ويتحابون فيما بينهم، ويحبهم الله تعالى ويرضى عنهم<sup>(٣)</sup>.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تبارك وتعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل: إن الله قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل ثم ينادي جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء ويوضع له القبول في أهل الأرض)<sup>(٤)</sup>.

٢. كفاية الله للمتوكلين.

وعد الله عز وجل عباده المتوكلين عليه بالكفاية.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

فقد قضى الله عز وجل على نفسه كفاية

(٢) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكّي بن أبي طالب ٧/ ٤٦٠٠.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ١٦٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع جبريل ونداء الله الملائكة ٩/ ١٤٢، رقم ٧٤٨٥.

لَكُمْ وَإِنْ يَخَذِلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ [آل عمران: ١٦٠].

فنصر الله تعالى هو النصر الحقيقي، وخذلانه للعبد بتركه نصرته ومساندته هو الخذلان الحقيقي، فمهما بلغت مناصرة البشر فهي ليست بشيء أمام مناصرة رب البشر، ومن ناصره الله فلن يضره خذلان الخاذلين، ولن يضره تقاعس المتقاعسين، قال ابن القيم: «هو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن الخائف ويجير المستجير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه؛ تولاه وحفظه وحرسه وصانته، ومن خافه واتقاه آمنه مما يخاف ويحذر، وجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع»<sup>(٥)</sup>.

٤. النجاة من كيد الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَفِزَّزَ مِنْ أَسْتَفِزَّتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَلْبِطَ عَلَيْهِمْ بَخْلِكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّتِهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ [الإسراء: ٦٤-٦٥].

فقد تحدى الله تعالى الشيطان أن يبذل كل جهده وأن يقطع من يشاء عن الحق، وأن يستخدم كل صوت له ولأعوانه في

(٥) بدائع الفوائد ٢/ ٢٣٧.

المتوكلين، فهو سبحانه الذي يكفيهم ما أهمهم في دينهم ودنياهم، وهو الضامن لهم الرزق، الحافظ له من كل ما يخشون<sup>(١)</sup>.

قال الربيع بن خثيم يبين معنى ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾: «من كل ما ضاق على الناس»<sup>(٢)</sup>.

وقد دعا المؤمنون الله تعالى باسمه الوكيل كي يحميهم ويمنع عنهم كيد الكائدين.

عن ابن عباس رضي الله عنه: (حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣])<sup>(٣)</sup>.

أي: الله ربنا، وهو كافينا كل ما أهمنا وهو المفوض إليه تدبير عبادته، والقائم بمصالحهم<sup>(٤)</sup>.

٣. النجاة من الخذلان.

النصر والنجاة من الخذلان هي مكافأة الله تعالى للمتوكلين عليه.

قال تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣٣٨/٩.  
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه معلقاً، كتاب الرقاق، باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)، ٩٩/٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم)، ٣٩/٦، رقم ٤٥٦٣.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٧.

الوسوسة والإبعاد عن الدين، وأن يبذل في سبيل ذلك كل الوسائل المادية المتاحة له، ووعد عز وجل عباده ألا يجعل للشيطان سلطاناً عليهم، وأنه تعالى سيكفيهم ويعصمهم من إغوائه وكيدهِ<sup>(١)</sup>، وهو تعالى القائل في محكم كتابه: ﴿وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

فالمؤمن لا يضره التآمر من أي كائن كان؛ لأن الله تعالى حافظه، يقول سيد قطب: «فهو الحارس الحامي، وهو القوي العزيز، وهو العليم الخبير، وهو الشاهد الحاضر الذي لا يغيب، ولا يكون في الكون إلا ما يريد، وقد وعد بحراسة المؤمنين، فأَي طمأنينة بعد هذا وأي يقين؟»<sup>(٢)</sup>

٥. النجاة من الكربات.

ومن النماذج التي تبيّن نجاة المؤمنين المتوكلين بفضل الله تعالى قصة أصحاب الكهف، فقد فروا من ملكهم وقومهم الكافرين ولجأوا إلى حماية الله تعالى.

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ (١) ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ (١١) [الكهف: ١٠-١١].

فقد أوى أولئك الفتية إلى الكهف خائفين لعلهم يستترون عن الأنظار فلا يراهم أحد من قومهم، وهذا أخذٌ بالأسباب، فلم يكتفوا بالدعاء والمكوث بين الظلمة، بل تركوا المكان، وذاذوا بدينهم إلى مكان أمين، ثم فوّضوا أمرهم إلى ربهم، فضرب الله على آذانهم حجاباً يمنعهم من سماع الأصوات والحركات، فناموا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين، وكانوا يتقلبون بلطف الله وتدييره من جنب إلى جنب، حتى بعثهم من نومهم وكانت قريتهم وقتئذٍ قد آمنت ولم يعد فيها ملكٌ ظالم، وهذا تفريج الله تعالى لكربتهم واستجابته لتضرعهم<sup>(٣)</sup>.

وقد بيّن سيد قطب أن قلوب هؤلاء الفتية مؤمنة ثابتة راسخة، متوكلة مطمئنة إلى الحق الذي عرفت، معتزة بالإيمان الذي اختارت، وقد استحقت بذلك رحمة الله تعالى<sup>(٤)</sup>.

ومن أروع الأمثلة على تفريج الكربات، ما حدث أثناء هجرة محمد صلى الله عليه وسلم وأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿إِلَّا نَصْرُهُ فَكَدَّ نَصْرُهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَائِبَ آثِنِينَ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْرُنْ إِنْ كُنَّا اللَّهُ مَعَنَا قَآئِلُ اللَّهِ سَكِينَتُهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيهِ

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٨٨/١٠.  
(٢) في ظلال القرآن ٣٥١٠/٦.

(٣) انظر: أيسر التفاسير، الجزائري ٢٣٨/٣.  
(٤) انظر: في ظلال القرآن ٢٢٦١/٤.

وأفعاله<sup>(٣)</sup>.

ثانياً: ثمرات التوكل في الآخرة:

١. النجاة من العذاب.

النجاة من العذاب هي مطلب كل مؤمن، وهي الحق الذي وعد الله به عباده المخلصين.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَبِّئِ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].

فالمؤمن المتبوع لرسول الله عليهم السلام، المخلص المتقي الشاكر المتوكل يستحق الرحمة من العذاب<sup>(٤)</sup>.

ويذكر السعدي أن تلك النجاة تثبت للمؤمنين في الدنيا والآخرة على السواء، وهذا من قبيل دفاع الله تعالى عن المؤمنين الذي ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَنْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].

وأوضح أنه على قدر ما يتحلى المرء بالأداب، تحصل له النجاة من المكاره<sup>(٥)</sup>.

ومن نماذج نجاة المؤمنين من العذاب، نجاة سيدنا هود ومن آمن معه.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَتِنَا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابِ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

يَجْتُوهُنَّ لَمَّا تَرَوُنَّكَ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ [التوبة: ٤٠].

فقد خرج رسولنا صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد إيذاء المشركين وتآمرهم على قتله، وليس لديه قوة تكفي لمقاومتهم ومدافعتهم، والعرب كلهم ضده، وكان معه صاحبه أبو بكر رضي الله عنه، فكان المقام مقام أدب التوكل الكامل<sup>(١)</sup>.

وقد لجأ إلى الغار، فأقاما فيه ثلاثة أيام ليسكن الطلب عنهما، وذلك لأن المشركين حين فقدوهما ذهبوا في طلبهما كل مذهب من سائر الجهات، وجعلوا لمن ردهما أو أحدهما مائة من الإبل، واقتصوا آثارهما حتى اختلط عليهم، واحتاروا في مكانهما، فصعدوا الجبل الذي هما فيه، وجعلوا يمرّون على باب الغار، فتحاذي أرجلهم باب الغار ولا يرونهما، حفظاً من الله لهما<sup>(٢)</sup>.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متأدباً بالثقة في نصر الله، فنصره الله وأعلى قدره، ومكّن دينه في سائر أنحاء الأرض، والله عزيزٌ في انتقامه وانتصاره، منيع الجناب، لا يضام من لاذ ببابه واحتمى بالتمسك بخطابه، حكيمٌ في أقواله

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٥٥.

(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢١٤.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن ١/ ٤٨٨.

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٧٥.

(٢) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ٢٢٣.

يَعْمَ أَجْرَ الْعَمَلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ [العنكبوت: ٥٨-٥٩].

فهذا وعد الله تعالى للمؤمنين المتوكلين بإسكانهم منازل عالية في الجنة، تجري من تحت أشجارها الأنهار، على اختلاف أصنافها، من ماء وخمر وعسل ولبن، ماكثين فيها أبداً، لا يبغون عنها حولا، جزاء لهم على أعمالهم، وأنعم به من جزاء! (٣).

قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦].

حيث يكون ثواب الله نعيماً لا يفنى، ورزقاً لا ينفد، وهذا الجزاء للذين آمنوا، وتوكلوا على ربهم، وأسلموا أمرهم له، فثواب الله خيرٌ في طبيعته، أبقى في مدته من أي ثواب (٤).

وفي الحديث عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب؛ هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون) (٥).

وذكر ابن عجيبة أن ذكر النجاة تكرر في هذه الآية مرتين؛ لأن الله تعالى عنى بالأولى تنجيتهم من عذاب ريح السموم الذي أصاب قومهم، والتنجية الأخرى من العذاب الغليظ، قصد بها نجاتهم من النار يوم القيامة (١).

وذكر الله تعالى نجاة قوم صالح عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

وذكر القشيري أن رب العزة قد أجرى على المكذبين ما توعدهم به من عذاب غير مكذوب، ونجى نبيهم المتوكل عليه السلام، ونجى من أتبعه من كل عقوبة في الدنيا والآخرة، سنةً منه سبحانه في تنجية أوليائه أمضاها، وعادةً في تطفئه ورحمته بالمستحقين أجزاها (٢).

٢. دخول الجنة.

الجنة هي أسمى غايات المؤمن، وأرجى أماله، وغاية عمله وعبادته.

قال تعالى واعدًا عباده المتوكلين الصابرين بالخلود في النعيم المقيم: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾

(١) انظر: البحر المديد ٣/ ٣٠٤.

(٢) انظر: لطائف الإشارات ٢/ ١٤٥.

### موضوعات ذات صلة:

الألوهية، الإيمان، التوحيد، العبادة

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ٢٥.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٠٥.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق،

باب (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)،

١٠٠/٨، رقم ٦٤٧٢.